المحاضرة الأولى

أوضاع العالم الاسلامي عشية الحروب الصليبية

اضحى العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي موزعا في ولائه السياسي بين محورين : الخلافة العباسية والدولة الفاطمية ، بحيث كان النزاع والخصام السمة البارزة في تحديد طبيعة العلاقة بينهما ، فضلا عن سوء احوالهما الداخلية المرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام المجال الحيوي الذي تنازعت هاتان القوتان السيادة عليه ، موزعا بين عدة امارات صغيرة،فكانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام ، امارة مستقلة تحت حكم عربي أو من الاتراك السلاجقة .

الخلافة العباسية :

وقعت الخلافة العباسية تحت نير التسلط الاجنبي ردحاً من الزمن ، الامر الذي أدى الى انتشار الفوضى والاضطرابات ، فكانت النتيجة المترتبة على ذلك انفصال الولايات عن مركز الخلافة . ويتضح ذلك جليا في عهد التسلط البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ) اذ عامل البويهيون الخلفاء معاملة سيئة للغاية ، فضلا عن استحواذهم على كل مقدرات الخلافة ، فلم يكن وجود الخليفة العباسي الا اسما، بحيث انهم كانوا يعزلون ويولون من شاءوا فباتت الخلافة تعيش حالة من الضعف والتدهور حتى وصلت الحال بالخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤هـ-٣٦٣م) أن عمد الى بيع اثاث بيته ورخامه من أجل سد النفقات المطالب بها من قبل الامير البويهي بختيار بن معز الدولة كما وقد ازدادت الاوضاع سوءاً بعد أن حصلت النزاعات بين الامراء البويهيين أنفسهم والتي ادت بدورها الى استنفاذ كثير من موارد الخلافة من جهة واضعافهم من جهة اخرى مما أدى بدوره الى زيادة نفوذ الجند الاتراك ، الذين كانوا يشكلون جزءا مهما من الجيش البويهي ، حتى اصبحوا يتدخلون في تولية وعزل الامراء البويهيين ، ومن بين ابرز الشخصيات التركية التي ادت دورا بارزاً في هذا المجال ابو الحارث البساسري الذي تمكن من الاستيلاء على الانبار وطرد العقيلين منها في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م . وقد ازداد نفوذ البساسري واستبد بالسلطة حتى اصبح الخليفة القائم بأمر الله لايقطع بقولٍ

او فعلٍ دون ارادته او علمه ، فضلا عن مشاركته للخليفة في مراسيمه الدينية ، ليس هذا فحسب بل أخذ به الامر الى مكاتبة الفاطميين وعزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ونتيجة لهذه الظروف السيئة التي تمر بها الخلافة العباسية ، اضطر الخليفة القائم بأمر الله الى استدعاء السلاجقة ، بقيادة طغرلبك ، يتضح ذلك من خلال الرسالة التي ارسلت اليهم ، وفي حدود سنة ٤٤٧هـ دخل طغرلبك بغداد ، استجابة لطلب الخليفة وخطب له على منابرها الى جانب اسم الخليفة ولقب بالسلطان ركن الدولة ويمين أمير المؤمنين وبدخول السلاجقة بغداد اخذ نفوذهم يزداد ، اذ استأثروا بالسلطة من دون الخلفاء بحيث اصبح السلطان السلجوقي هو صاحب الحل والعقد، مفوضة الامور اليه برأيه وتدبيره كما أنهم شاركوا الخلفاء بالمراسيم الدينية والسياسية ، اذ خطب لهم على المنابر كما فعل بنو بويه من قبل ونقشت اسماؤهم والقابهم على السكة الى جنب اسماء الخلفاء ، ومع هذا كله فان السلاجقة لم يتدخلوا في سلطة الخلفاء الدينية وظلوا يبدون لهم شيئا من الاحترام وخاصة في الفترة التي حكم فيها الب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) اذ حرص هذا السلطان بأن تكون علاقته مع الخليفة علاقة ودٍّ واحترام ، فكان مطيعا لرغبات الخليفة ، يتبين ذلك من خلال الرسالة التي نفذت اليه من الامبراطور البيزنطي راجيا توسطه في عقد الصلح مع السلطان الب ارسلان ، وقد تم ذلك بعد توسط الخليفة ، وعلى الرغم من مظاهر الحب والاحترام المتبادل بين السلطان والخليفة الا ان ذلك لم يدم طويلا ، اذ حاول السلطان الب ارسلان سنة ٤٦٤هـ ان يتدخل في تعيين أحد وزراء الخليفة ، مما ادى بدوره الى تدهور العلاقة بينهما ، فقد عُد الخليفة هذا الفعل تدخلاً في شؤون الخلافة فرفض استقبال الوزير وعلى أي حال فان السلطان الب ارسلان وافاه الاجل في سنة ٤٦٥هـ ، فخلفه في حكم البلاد ابنه ملكشاه الذي يعد عهده عهد قوة وازدهار اذ اتسع سلطان السلاجقة ليشمل البلاد المحصورة بين كشفر شرقا الى انطاكيه غربا ومن بحر خوارزم شمالا الى حدود اليمن جنوبا ، فشملت بذلك ايران وبلاد ما وراء النهر واسيا الصغرى والفرات وبلاد الشام بحيث اصبحت هذه الدولة مصدر رعب يهدد العالم المسيحي ويخيفه ، ولكن هذه السعة والنفوذ لم تدم طويلا ، اذ أصاب هذه الدولة

التصدع والانقسام على اثر وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، فاحتدم الصراع بين ابنائه حول السلطة ، ويقول ابن خلدون واصفا حالهم (وكان بركياروق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخورستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد الران وارمينية واصبهان والعراق جميعه إلا تكريت ، واما البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا . . . وأما خراسان من جرجان الى ما وراء النهر ، فكان يخطب فيها لسنجر بعد اخيه السلطان محمد). من الطبيعي أن تؤدي هذه الحرب والنزاعات بين افراد البيت السلجوقي الى خسائر جسيمة في الارواح والممتلكات ، فضلا عن ما يصيبها من ضعف وانقسام .

ومن خلال ما تقدم يمكننا القول أن السلاجقة الذين فرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية اسهموا بشكل كبير في اضعافها ، الامر الذي حجب كثيرا من قدراتها وما تمثله من سلطة روحية ودينية بالنسبة لجميع المسلمين .

المصادر :

١. **ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .**

٢. **ابن واصل ، مفرج الكروب .**

٣. **ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق .**

٤. **الراوندي ، راحة الصدور .**

المحاضرة الثانية
اوضاع الدولة الفاطمية وبلاد الشام

١. أوضاع الدولة الفاطمية :

لم تكن الدولة الفاطمية بأفضل حال من سابقتها (الخلافة العباسية) وذلك بسبب ما كانت تعانيه من ظروف سياسية واقتصادية ادت الى ارباك الوضع الداخلي في مصر عشية الغزو الصليبي ، فقد عاشت ظروفا سياسية عصيبة ، نتيجة تدخل الشخصيات المتنفذة في القصر الفاطمي ، لا سيما بعد وفاة الظاهر الذي ترك ابنه المستنصر وريثا للعرش وهو لا يزال صغيرا ، غير قادر على تدبير شؤون البلاد ، فاصبحت مقاليد الحكم بيد أمه التي لم تكن على معرفة بأمور السياسة وضروبها ، اذ ظهر في عصرها التمييز العنصري بين الجنود الاتراك والجنود العبيد ، وذلك سبب تقريبها للوزير ابي سعيد التستري أكثر من غيره ، الامر الذي أثار نقمة الوزير صدقة بن يوسف الغلامي ، فعمل على قتل التستري عن طريق اثارة الجنود الاتراك ضده فغضبت لذلك وبدأت بتقريب الجنود العبيد اليها وتحريضهم على الجنود الاتراك مما نتج عنه حصول المنازعات الكثيرة بين الطرفين ، أدت بطبيعتها الى اضعاف الجيش الفاطمي من جهة واستنزاف موارد البلاد من جهة أخرى . وهناك من المؤرخين من يعتبر ان المستنصر الفاطمي كان سبباً بحدوث هذه الفتن ، اذ جرى اول تصادم بين العنصرين في احدى النزهات التي كان خارجا بها المستنصر الفاطمي ، حيث قتل أحد الجنود الاتراك بعد أن شهر سيفه على جماعة من العبيد ، مما دفع بالاتراك الى مهاجمة العبيد .

ويورد المقريزي رواية غريبة بهذا الخصوص اذ يقول : (انه كان يخرج كل عام بنزهة مشابهة في غير موسم الحج على سبيل الهزل والضحك ، ويلبس لباس الحجاج وكأنه يريد الحج ، ويحمل معه الخمور عوضا عن الماء والطبول والات الطرب والمغنين والراقصين ، وفي احدى هذه الجولات كانت الشرارة التي اشعلت هذه الفتن و الحروب) .

نحن لا نعتقد حصول مثل هذه الامور ، ولكن الذي يمكن أن نستنتجه من هذه الرواية ان الروح العنصرية كانت متأججة وبشكل كبير في البلاد بين الترك والعبيد من جهة وعدم قدرة الحكام الفاطميين على ضبطها من جهة اخرى. بدليل ما قام به المستنصر الفاطمي من محاولة لايقاف النزاع القائم بين الجانبين عندما

كلف وزيره ابو الفرج بن المغربي ، الذي تردد في الصلح بين الطرفين ، ولكن دون جدوى وقد عدّ الجند الاتراك المستنصر بالله الفاطمي منحازا الى الجند العبيد ، اتهموه بالتعاون معهم وذلك بامدادهم بالاموال والاسلحة ، فهجموا عليه وحصروه في قصره، واضطروه الى دفع اموالٍ طائلة ، الامر الذي انعكس على حالة البلاد الاقتصادية والسياسية ، اذ انعدمت الثقة بين المستنصر الفاطمي ووزرائه ، فكانت عملية تعيين الوزير واعفائه من المسائل الشائعة في تلك الفترة . فقد اشار المقريزي الى تلك الحالة بقوله (فكان الواحد منهم لا يلبث أن يأتيه كتاب تعيينه في منصب الوزارة حتى يأتيه كتاب عزله عنها). ويذكر أحد المؤرخين أنه تم تعيين عشرين وزيرا في غضون اربع سنوات ، ويشير حسن ابراهيم حسن الى تلك الاوضاع المتردية حول تعيين الوزراء أنه تم تعيين اربعون وزيرا في غضون تسع سنوات وذلك بعد وزارة البازوري سنة ٤٥٩ هجرية. الامر الذي أجج الروح العنصرية بين الجنود المرتزقة من اتراك وسودان وجعلها اكثر خطورة في ظل هذا الحكم الضعيف كما وقد تزامن مع هذه الاوضاع السياسية المتردية أزمة اقتصادية اجتاحت جميع بلاد مصر ، والتي امتدت الى أكثر من سبع سنين تقريبا ادت الى انزال الكوارث الاقتصادية المدمرة ، نتيجة انخفاض مناسيب المياه في نهر النيل وسوء الحكم واضطرابات الامور ، وبالغ عدد من المؤرخين في ذكر احوال تلك الازمة وما نتج عنها من افعال وتصرفات قد تكون في غاية الغرابة ، من الامثلة على ذلك ما ذكره ابن خلكان اذ يقول (حدث في ايام المستنصر بالله الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام حتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً) وذكر ابن تغري بردي في احداث ٤٥٩هـ نحو ذلك قائلا (وفيها كان بمصر الغلاء والقحط المتواتر الذي خرج عن الحد ولا زال في هذه السنة والتي قبلها الى أن أخذ أمره في نقص في سنة ٤٦١ هـ وبيع القمح في هذه السنة بثمانين ديناراً) . وذكر بعض المؤرخين في حوادث سنة ٤٦٢هـ ما عمَّ مصر من الغلاء الشديد حتى وصل الحال بالناس ان أكلوا الميتات والجيف والكلاب . ويتحدث المقريزي عنها فيقول : (واشتد الغلاء بمصر وقلت الاقوات في الاعمال وعظم الفساد والضرر والجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقفوا في الطرقات

يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه ، ونتيجة لهذه الاعمال المروعة اصبح الناس يخافون على انفسهم من الخروج ليلا، حتى أن الامر تعد أكثر من ذلك ليشمل موتى المسلمين وما يقوم به اللصوص من نبش القبور ليلا ، فاصبح الناس لا يستطيعون دفن موتاهم في النهار بل ينتظرون حتى يجن الليل . وكان من شدة هذه الازمة أن أخذ عدد من الناس بالمتاجرة بالحيوانات المحرمة شرعا ، بل اصبحت من المسائل الشائعة بغية توفير الطعام ، فيقال ان سعر القط وصل الى ثلاثة دنانير وسعر الكلب خمسة دنانير ، فنحن نستبعد حصول مثل هذه الاعمال بل نجد فيها كثيرا من المبالغة، ولكنها تشير بشكل أو بآخر على عظم الفاقة التي اجتاحت مصر في تلك الفترة من جهة ، وسوء تدبير النظام القائم من جهة أخرى .

وهناك نجد من يشير الى أن هذه الازمة اصابت جميع مؤسسات الدولة ورجالها بما فيهم الوالي الفاطمي ، اذ يذكر أن المستنصر الفاطمي ، اصبح يجلس على حصيرة حتى أنه لا يستطيع أن يوفر الطعام لنساءه . كما يجب عدم اغفال دور التجار في هذا المجال وما قاموا به من احتكارات لاسيما في السلع الضرورية التي كان الناس بأمس الحاجة اليها مثل المواد الغذائية بغية ارتفاع اثمانها ، وهنا يمكننا القول بأن المواد الغذائية باتت موجودة في السوق ولكن بأيدي المحتكرين ، ولو كانت هناك سلطة رشيدة لقامت بأعمال من شأنها تقليل شدة هذه الازمة . الامر الذي دفع العامة الى مهاجمة الوالي الفاطمي وحاشيته وتهديدهم بالقتل اذا لم يضعوا حلا لهذه الظروف العصيبة، ولاسيما فيما يحتاجونه من مواد غذائية ، ونتيجة لهذه الضغوط التي تعرض لها المستنصر الفاطمي قام باستدعاء الامير بدر الجمالي والي عكا محاولة منه في ايجاد حل مناسب لما تعرضت له مصر من ازمة اقتصادية فتوجه الامير بدر الجمالي الى مصر وحال وصوله قلده المستنصر بالله الوزارة وورد في أمر توليته ما نصه (وقد قلدك امير المؤمنين جميع جوانب تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره) يتبين من خلال هذا النص أن بدر الجمالي اطلقت يده في جميع الامور . فكان اول عمل قام به هو التخلص من جميع المناوئين له في الحكم . وهذا يعني ايذانا للبدء بالدخول في سلسلة جديدة من

الصراعات الداخلية حول سلطة الوزارة . وعلى الرغم مما قام به بدر الجمالي من الاعمال في مواجهة الازمة الاقتصادية ، إلا أن ذلك لم يحد من حجم الانقسامات الداخلية التي تعرضت لها مصر ، ولاسيما بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧هـ اذ تولي الافضل بن بدر الجمالي الوزارة بعد ابيه وعمد على اقصاء ابن المستنصر نزار وتولية أخوه الاصغر أحمد في حكم البلاد ولقبه بالمستعلي الامر الذي نتج عنه صراعات داخلية بين الافضل وبين نزار الذي انحاز اليه أهل الاسكندرية وبايعوه بالخلافة ولقب بالمصطفى ، وعلى الرغم من ان الافضل تمكن من اخماد الفتنة الا انه ألحق الضرر البالغ بالاسكندرية وأهلها ، كما وان هذه الحروب استنزفت كثيراً من موارد البلاد وطاقاتها . وهذا ما اشار اليه ابن تغري بردي اثناء حديثه عن الدولة الفاطمية ووضعها المتردي بقوله (ووهنت دولتهم وانقطعت دعوتهم . . ولم يكن للمستعلي مع الافضل بن أمير الجيوش حكم) ومن خلال ما تقدم يمكننا القول ان الدولة الفاطمية اصبحت على شفا جرفٍ هارٍ نتيجة ما كانت تعانيه من صراعات داخلية من جهة ، وما تعرضت له من ازمة اقتصادية من جهة أخرى ، فضلا عن عجز الوالي الفاطمي عن القبض على زمام الامور وتداركها.

٢. أوضاع بلاد الشام

بعد أن تمكن السلاجقة من فرض نفوذهم على الخلافة العباسية على اثر دخول سلطانهم طغرلبك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ، فقد رأى هؤلاء السلاجقة أنهم حماة للخلافة، فوجهوا اهتماماتهم الى استعادة ما فقدته من املاك ونفوذ، لذلك قرر سلاطينهم التوجه الى بلاد الشام، لا سيما بعد المراسلة التي قام بها امير حلب الامير محمود بن نصر بن مرداس مع السلطان السلجوقي الب ارسلان ويبدو أن

قدوم امير حلب على هذه الخطوة كان نتيجة لما رآه من قوة السلاجقة من جهة، وضعف الفاطميين من جهة أخرى، بدليل ما قاله أمير حلب للحلبيين (لقد ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة، مملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دمائكم لأجل مذهبكم، والرأي ان نقيم الخطبة، خوفا من أن يجيئنا وقت لا ينفع فيه قول ولا بذل) .

المصادر :

١. قاسم عبيدة قاسم : ماهية الحروب الصليبية .

٢. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الاولى .

٣. أحمد رضا بك : الحيثية الادبية للسياسة الغربية في الشرق، ترجمة محمد ابو رقيبة، ومحمد صادق الزلمي .

المحاضرة الثالثة
عوامل قيام الحروب الصليبية

أ- العامل الديني :

مع مطلع القرن الخامس الهجري أخذت تنتشر في الغرب اساطير كان فحواها قرب نهاية العالم وما أكد هذه الأفكار لدى العامة ظهور بعض الظواهر الطبيعية مثل ثوران بركان فيروز في ايطا٤اليا وانتشار الامراض التي أودت بحياة الكثير من الناس. وقد عملت البابوية على تاكيد هذه الاعتقادات في نفوس العامة الذين أخذهم الرعب الى الاندفاع والتقرب الى الله بما لديهم من أموال الى الكنيسة وهذا ما أدى بطبيعة الحال الى زيادة أموال الكنيسة بشكل ملحوظ هذا من جهة ، ومن جهة

أخرى ازدياد مكانتها في قلوب الناس اذ انقضى ذلك اليوم الموعود بدون كارثة فقالوا (ان ذلك بفضل ادعية الرهبان وتضرعاتهم للخالق).

وقد استطاعت الكنيسة كذلك استغلال هذا الموقف لصالحها اذ قامت بتحويل هذا الجو النفسي والفكري الى غاية خاصة فان (من يموت في سبيل الكنيسة سوف ينال ثوابا من السماء) ، ومن هنا أخذت توجه الناس الى مسألة تكفير الذنوب التي تتم عن طريق الذهاب الى الاماكن المقدسة.

ومن المعلوم أن سيل الحجاج الاوربيين الى القدس لم ينقطع منذ الازمنة القديمة الى يومنا هذا ولكن هذه المرة تختلف عن غيرها وهو ما اصطلح عليه بالحروب المقدسة ، اذ اخذت الكنيسة تكشف عن سياستها الخارجية في توجيه حرب صليبية ضد المسلمين . اذ قامت بترويج حملة دعائية واسعة كان فحواها تخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين ، على اعتبار أن الحجاج المسيحيين كانوا يواجهون المتاعب والاهوال من قبل الحكام المسلمين ، وعادوا (الحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه المتاعب الى الغرب وقد استبد بهم التعب وازداد عوزهم وفقرهم ، وادخروا قصة مروعة ليروووها في بلادهم) وهذا ما حاول تأكيده المؤرخون الاوربيون . فمن الواضح لدينا ان هذا الادعاء غير صائب ولا يمكن الاتفات اليه بدليل أن المسيحيين قد عاشوا في كنف الدولة العربية الاسلامية عيشة عز واحترام طبقا لتعاليم القرآن الكريم اذ قال ((**فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**)) . والشواهد التاريخية التي تدل على حسن المعاملة هذه كثيرة منها تحرير القدس الشريف على يد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكيفية تعامله معهم وتحريره على يد صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٣هجرية وما حظي به المسيحيون من حسن المعاملة.

نحن نسوق هذه الادلة مقارنة مع مافعله الصليبيون عند غزو بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية ، وما ارتكبوه من نهب وقتل فلم يسلم من سيوفهم حتى ابناء جنسهم ، وهذا ما سنبينه لاحقا .

وعلى أي حال فان الكنيسة استخدمت كل وسائل الاغراء مثل اعفاء المشاركين في الحملة المسلحة الى الشرق من جميع الضرائب والتبعات لمدنه الحديثة وكذلك

حمايـة اقطاعـاتهم مـع موافقتهـا علـى مـنحهم الاراضـي التـي يسـتولون عليهـا فـي المشرق.

وعلى هذا الاساس وجد الصليبيون في هذه الامتيازات البغية المطلوبة والمنقذ الوحيد من حياة الفقر والبؤس التي كانوا يعانون منها ، أما من الناحية الدينية فان البابا أصدر قانونا وعد المشاركين في هذه الحروب بغفران الذنوب ، الذي تبلور بشكله النهائي ببذل صكوك الغفران .

ب- العامل الاجتماعي والسياسي

من المعروف لدينا أن الظروف الاجتماعية لها دور كبير في تغيير مسار تاريخ العديد من الشعوب ، اذ تكون مهيئة لاعتناق فكرة او تلبية دعوة . وهذا ما نلمسه فعلا في المجتمع الاوربي لاسيما في العصور الوسطى ، فقد كان هذا المجتمع مؤلفا من ثلاث طبقات رئيسة هي : طبقة رجال الدين – من الكنيسيين والديريين– ، وطبقة النبلاء –من المحاربين والفرسان– ، وطبقة الفلاحين – من الاقنان ورقيق الارض . اذ لم تكن هذه الطبقات متساوية في حقوقها وامتيازاتها ولا في الواجبات المفروضة عليها ، بل كان هناك تفاوت كبير فيما بينها بحيث كانت الطبقة الثالثة أكثر معاناة من غيرها ، وذلك لما يقع على عاتقها من العمل الشاق ، بغية سد حاجات الطبقتين الاوليتين .

فعند تسليط الضوء على طبيعة حياة هذه الطبقة الكادحة يفسر لنا بشكل كبير سبب دخول هذه للطبقة وباعداد كبيرة في الحروب الصليبية. فقد كانت حياتها شبه معدومة نتيجة للقلق والخوف والفقر والممارسات اللاانسانية من قبل الاقطاعيين ، مما أدى الى انتشار ظاهرة هروب الفلاحين من مزارعهم ولاسيما في القرن الحادي عشر ، أما مساكنهم فلا تتعدى جذوع النخل واغصان الاشجار متقين بها حرارة الشمس وبرد الشتار ، مستعينين ببعض الأواني الفخارية وصندوق صغير تلبية لسد حاجاتهم ، ناهيك عن الجهل والتخلف الذي كان منتشرا وبشكل كبير بين أفراد هذه الطبقة هذا اذا ما علمنا بأن الاقنان والعبيد كانوا يشكلون الغالبية العظمى من اصحابها ، الذين ارتبطوا بالارض ارتباطا وثيقا بحيث انهم يباعون ويشترون معها

استنادا الى قانون الارض الذي كان سائدا في العصور الوسطى فكان هؤلاء الاقنان مسلوبي الحرية الشخصية ، حتى أن جميع ممتلكاتهم كانت ملكا لسيدهم الاقطاعي بالمقارنة مع مايؤدونه من أعمال شاقة ، من حفر الخنادق وبناء الحصون وانشاء الطرقات والجسور وصيانة السدود والقنوات ورعاية الاغنام ، وجز الاصواف وزراعة ارض الاقطاعي الخاصة به ، ليس هذا فحسب بل (حتى نساء الفلاحين كن يشتغلن وكن اقنانا فقد كانت النساء المستعبدات مجبرات على حياكة قطع من القماش أو عمل رداء) . أضف الى ذلك ما تقدمه هذه الطبقة من ضرائب مثل ضريبة الرأس المفروضة على القن سنويا تعبيرا عن عبوديته ، فضلا عن الضريبة المفروضة على ما تخرجه الارض من زرع وعلى ما في حوزتهم من المواشي المعروفة بضريبة العشر التي كانت شائعة في أغلب البلدان المسيحية ، ونتيجة لهذه الظروف العصيبة التي مرت بها هذه الطبقة فقد أخذوا يرحبون بفكرة تعدهم بالخلاص من هذا الواقع الأليم أو تحسينه ، ومن جهة أخرى سيطر عليهم شعور مفاده أن كل ما يلاقونه من عذاب انما هو بسبب المعاصي والذنوب التي ارتكبوها فلا (يمكن التخلص من العذاب الدائم الا بطلب الرحمة من الرب عن طريق اجتراء مآثر بطولية بالمعنى الديني ، للتكفير عن الذنوب لأجل غفران الخطايا من نوع الاستشهاد باسم الايمان) ، وهنا يمكننا القول بأن هذا الشعور هو من ترويج الكنيسة وحملتها الدعائية من أجل حمل الناس على مساندتها فيما تصبو اليه من حرب صليبية ضد الاسلام ، ودليل ذلك اشتراك الاعداد الغفيرة من افراد هذه الطبقة المعدومة ، اضف الى ذلك كله ما وصفته الكنيسة من خيرات تلك البلاد المقدسة ، فقد صوروها بأنها البلاد التي تتضح لبناً وعسلا وعلى هذا الاساس نستطيع أن نقرر أن سبب دخول هذه الطبقة وبأعداد كبيرة في الحروب الصليبية انما كان نتيجة لما كانوا يلاقونه من ضغوط اجتماعية واقتصادية فلو تيسر لهم العيش بحرية في بلادهم لما غامروا بأرواحهم الى مصير مجهول.

أما طبقة النبلاء – فلا يمكن اغفال دوافعها ، فانها لم تكن اقل طمعا من غيرها. وذلك سبب ما تمخض عن النظام الاقطاعي من قوانين ارثية ، تفضي بأن يرث الابن الاكبر الاقطاع عن ابيه ، في حين يبقى بقية الابناء بدون ارض ،

وهذا بطبيعته يؤدي بهم الى ايجاد سبل كفيلة من بينها قيامهم بعمليات السلب والنهب والحروب مع ابناء جنسهم لذلك ارتأت الكنيسة خير وسيلة للتخلص من هذه الحروب بايجاد حروب يوجه نطاقها خارج اوربا ، اذ يتضح ذلك جليا من خلال الخطاب الذي ألقاه البابا في مجمع كلرمونت قائلا : (من الصعب عليكم أن تعيلوا السكان في هذه البلاد وهذا ما يدفعكم لشن الحروب الكثيرة على بعضكم) وقال ايضا ان (هذه الارض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب تحوطها سلاسل الجبال وتضيق باعدادكم الكبيرة ، وهي لا تفيض بالثروات الكبيرة ، انما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقوم بزراعتها ، وهذا هو السبب في انكم تشنون الحروب ضد بعضكم البعض وتقتلون بعضكم بعضا) ، أما عن ملوك اوربا فان دخولهم في الحرب كان اضطراراً وذلك بسبب ما لاقوه من ضغوط من جانب امراء الاقطاع والكنيسة ، فمن جانب امراء الاقطاع فان هذا النظام كان هو السائد في اوربا كما هو معروف ، بحيث أن ملوك اوربا كانوا معتمدين في قوتهم وبشكل كبير على هذا النظام ، فكان افراد هذا النظام في الغالب يقفون أمام رغبات الملوك ، الامر الذي ادى الى حدوث صراع سياسي بين الملوك ورجال الاقطاع.

أما من جانب الكنيسة – فان هذا يتضح جليا من خلال المراسلات التي كانت تقوم بها الكنيسة الى ملوك اوربا لحثهم في الخروج على رأس جيوشهم الى الشرق لمحاربة المسلمين وقد استخدمت الكنيسة سطوتها ونفوذها السياسي في اجبار الملوك على الاشتراك في هذه الحروب، يتضح ذلك من خلال اصدار قرار الحرمان بحق كل من لم يخرج ، وخير مثال على ذلك الامبراطور فردريك ، ومن خلال ما تقدم يمكننا القول أن الحروب الصليبية كانت العلاج الوحيد لجميع الطبقات في المجتمع الاوربي ، ذلك لما تعانيه من اضطرابات سواء كان ذلك على الصعيد السياسي ام الاجتماعي ام الاقتصادي ، فكل طبقة وجدت ضالتها في تلك الحروب .

ج- العامل الاقتصادي :

يعد العامل الاقتصادي من بين أهم العوامل التي دفعت الاروبيين الى القيام بهذه الحروب ضد المسلمين استناداً الى ما اتصفت به حياة المجتمع الاروبي في العصور الوسطى من ضنك العيش والبؤس والفقر ، اذ يذكر رنسيمان واصفا حالهم (فالحياة هنا اصبحت تعسه ، كثيرة الشرور ، بعد أن افنى الناس أنفسهم في تدمير أجسادهم وارواحهم واستبد بهم هنا الفقر والبؤس. .) ، وكان أكثر ما تكون هذه الحالة في فرنسا التي كانت تعاني من ازمة اقتصادية حادة اجتاحت البلاد بأسرها ، من غلاء في الاسعار وشحة في الخبر وعلى هذا الاساس نستطيع القول بأن سبب دخول الفرنسيين وبأعداد كبيرة في الحملة الاولى انما كانت بسب ما تعانيه البلاد من تخلف اقتصادي كبير. أضف الى ذلك ما كانت تعانيه اوربا من صراعات داخلية نتيجة لتردي الاوضاع الاقتصادية التي دفعت كثيرين الى القيام بأعمال اللصوصية وقطع الطريق ، فضلا عن الصراعات التي كانت قائمة بين كبار الاقطاعيين من أجل توسيع اقطاعاتهم وما يترتب على هذه الاعمال من التبعات الاقتصادية مثل تدمير الحقول وافساد المحاصيل الامر الذي يؤدي الى ارتفاع الاسعار وشحة الاقوات . ومن جهة أخرى فان الكنيسة اثبتت فشلها في ايقاف هذه الحروب المدمرة ، لذلك رأت الكنيسة أن الحل الوحيد في التخلص من هذه الحروب ايجاد حرب يكون نطاقها خارج اوربا . وقد استخدمت الكنيسة لانجاز هذا المشروع الترغيب والترهيب ، اذ وعدت الناس بالنعيم والسعادة وكثرة ثروات الشرق ، كما أنهم سيحظون بالرعاية الالهية وغفران الذنوب والخطايا، ومن جهة أخرى اصدرت قرار الحرمان لكل من يعارض هذا المشروع او من لم يشارك به من الملوك والامراء . كما يجب علينا عدم اغفال دور الطامعين من المغامرين والامراء ، الذين حرصوا على اقامة اقطاعاتهم في الشرق من اولئك الذين حرموا من ارث الاباء طبقا لما يقتضيه النظام الاقطاعي في العصور الوسطى ، فلو سلطنا الضوء على خط سير الحملة الصليبية لاتضح ذلك جليا من خلال ما اقترفوه من عمليات السلب والنهب المعارضة لكل القيم الدينية والاخلاقية . اضف الى ذلك ما حصل من منازعات بين القادة الصليبيين انفسهم بعد وصولهم الى بلاد الشام حول تكوين المستعمرات واستغلال مواردها للحصول على أكبر قدر ممكن من ثرواتها .

ومما يؤكد الدافع الاقتصادي ايضا ماقامت به المدن التجارية في اوربا امثال جنوه والبندقية وبيزا من دور كبير في مساعدة الصليبيين ، ذلك بتقديم كل مستلزمات النقل والتموين للصليبيين وذلك بغية الحصول على منتجات الشرق باسعار زهيدة ، وايجاد طرق جديدة تجعلها اكثر اتصالا بالشرق .

ومن خلال ما تقدم يمكننا القول بأن هذه المدن لم تكن مخلصة في مساعيها بل كانت مصلحتها التجارية فوق أي امر آخر ، حتى لو كان على حساب الصليب نفسه . بدليل ما قامت به البندقية في تحويل الحملة الصليبية التي كان من المقرر لها أن تتجه نحو مصر ، اذ لم تتورع ان وجهتها نحو القسطنطينية البلد المسيحي الآمن . ونحن نرى أن هذا العامل هو العامل المتغلب على بقية العوامل الاخرى لأهميته ولانطباقه على الأقوال والافعال التي رافقت الغزو الاوربي للمشرق الاسلامي.

١. سبط بن الجوزي : مرآة الزمان.

٢ . المقريزي : اتعاظ الحنفاء .

٣ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة .

٤ . ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب .

٥. ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق .

٦. ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله الى العربية السيد الباز العريني .

٧. ارنست باركر، الحروب الصليبية ، نقله الى العربية السيد الباز العريني .